كانت اياما كلها تاريخ ، نغض الطرف ـ الآن ـ عن تفاصيلها ، لنكتفي ، بالقول : ان المجلس الوطني الاول كان في حركة دائبة ، نقاش مستمر ، شكوك لا تنقطع ، مؤامرات لا تنتهي ، مزايدات ، تهاون ، تهديدات بين التلميح والتصريح ، ولجان تسجل وتشطب وتطبع ، ثم تلغي وتسجل من جديد وتشطب ثانية وتطبع من جديد .

ووصلنا اخيرا .. وفي جلسة الختام ، اعلن المؤتمر الوطني هذا قيام منظمة التحرير الفلسطينية ، بعد ان اقر ميثاقها ونظامها الاساسي ، وانتخب الشقيري رئيسا اول لاول لجنة تنفيذية فلسطينية . وما كان هذا كله ليتم لولا الجهود الخارقة التي بذلها الرجل دون كلل او ملل ودون ان يتسرب اليأس او الهون الى روحه .

انتهينا من الشرعية الفلسطينية ، وبقي امام المنظمة ان تستوفي شرعيتها العربية . ولم يكن ذلك بالسهل او الهين ، وعلى قمم الانظمة من له تحفظاته على المشروع ، او على الشقيري بالذات . ولا داعي ايضا للتفاصيل الان . لنكتف بالقول انه كان امام رئيس المنظمة الوليدة مهمات عسيرة وعقبات كأداء لا بد من الانتصار عليها وتجاوزها . وتمكن الشقيري من انجاز هذه المهمات ، وانتزع الشرعية العربية في قمة الاسكندرية يوم الخامس من ايلول ( سبتمبر ) ١٩٦٤ . وانطلقت قيادة المنظمة بعد ذلك ، بقيادة الشقيري ، لتبني ، من الصفر او ما دونه ، ما يستلزمه « الكيان » من مؤسسات ودوائر وقوات مسلحة ، واتخذت من القدس مقرا لمكتبها الرئيسي ، وافتتحت الفروع في العواصم العربية ... التي سمحت بذلك .

وبدأ الشقيري معاناة « المسؤول » ، بعد ان وصل الى موقعه ، علما بأنه كان لا يزال بلا امكانيات وحتى بلا صلاحيات ، وتتطلع اليه الابصار وكأنه امتلك العصا السحرية ، وليس عليه الا ان يحركها لتأتيه بالمعجزات . وشعبنا ، شعب فلسطين ، شعب صعب ، معطاء وسخي وكريم ، ولكنه شعب من القادة والرؤساء . والكل كان مستعجلا التحرير ، وهذا حق ، ولكن ما كان لجنين ان يفد الى هذه الدنيا بمجرد التقاء النطفة ببويضة الرحم دون مرور تسعة اشهر على الاقل !

في تلك الايام ، كان مجرد رفع « علم » فلسطين فوق شرفة اي مكتب من مكاتب منظمة التحرير ، يحتاج الى صراع طويل عريض مع الدولة المضيفة ، وكأن سماء العرب الطافحة بسواري الرايات القطرية قد ضاقت براية فلسطين . سقت هذه مثلا لكي يتذكر القارىء ما كنا عليه في الستينات من اوضاع .

انصافا ، نعترف للراحل الكبير بقدرته وكياسته وصلابته في خوض معاركه في هذا المجال من التحديات التي واجهت منظمة التحرير . وبالانصاف نفسه ، نقول ان الحظ لم يحالفه في معاركه الداخلية ، سواء مع « جيل الشباب » ممن انخرطوا في المنظمة وارتضوا بها اطارا لنضالهم ، او مع المنظمات المسلحة التي كانت لا تزال مترددة في موقفها من المنظمة واعتمادها ارضية مشتركة لنضالاتها . ولا اريد هنا الخوض في التفاصيل او اصدار الاحكام ، لسببين : الاول ، ان جلال المناسبة التي من اجلها كان هذا الحديث يفرض علينا ذلك ؛ والثاني ، انني كنت طرفا في هذا الصراع ولا يجوز لي بالتالي ان اكون حكما او مقيّما . كل ما استطيع قوله ـ وفي هذا عودة على ما قدمت به هذا الحديث ـ ان الرجل ، وهو المناضل